القسم الاول

حجاج وصليبيون

- ١ -

اذا ما استثنينا قصة جزائر القصدير سابقة الذكر ، لا محيص من ترك حقبة من الزمن لا تقل عن ألف عام ، بين عهدى التاجر الفينيقى والحاج الانكليزى ، ان اردنا الرجوع الى أقدم الوثائق التى تشير الى صلة بريطانيا بالشرق الاوسط . فقد كان حجاج اقطار حوض البحر المتوسط يتقاطرون على الاراضى المقدسة منذ أوائل القرن السابع للميلاد ، بينما ظلت بريطانيا فى عزلة مردها عوامل ، منها بعدها عن الشرق ، وضعف النفوذ الرومانى فيها ، وغزو السكسونيون الوثنيون لها ، واخيرا ما كان يحدث من صراع بين المبشرين الرومان والمبشرين الايرلنديين فى نشرهم الدعوة المسيحية فيها . وقد لعبت تلك العوامل دورا هاما فى ابقاء بريطانيا بعزلة روحية عن اوربا حتى عام ٦٦٣ ؛ عندما اعترف فى مجمع وثبى بسيادة روما على انكلترا . وفى أوائل القرن الثامن امضى ويليبولد[١] الانكليزى عشرة أعوام ـ من ٧٢١ حتى ٧٣١ ـ فى رحلة كان يهدف منها الحج الى الاراضى المقدسة . وربما اوحى لويليبولد بهذه الرحلة حاج فلمنكى الجنسية اضطر الى النزول الى الساحل الانكليزى بعد غرق سفينته وهو فى طريق عودته لبلاده . فروى قصة رحلته الى المؤرخ بيد[٢] ، فضمنها هذا بكتابه « التاريخ الاكليريكى »[٣] . واضطر ويليبولد الى اتخاذ الطريق البرى المار من

(١) Willeibald. (٢) Bede. (٣) Eclesiastical History.

أواسط أوربا ، لان الخلافة العربية فى اسبانيا كانت مانعا يحول دون سلوك الطريق البحرى عبر البحر المتوسط للوصول الى الاراضى المقدسة • ولم يستقم الطريق البرى الا بعد ان تغلبت جيوش شارل مارتل على العرب عام ٧٣٢ •

وتكشف قصة ويليبولد هذا ، عن مبلغ مشاق السفر يوم ذاك وكثرة اخطاره • ومع ما كان ينتشر فى جبال الالب وايطاليا من قطاع للطرق ، فقد استطاع هذا الحاج بلوغ نابولى ومنها ارتحل الى سراكوزا فمورنا ، فشايوس فساموس واخيرا بلغ مدينة افيسس بالقرب من ازمير • ومنها سار مشيا على الاقدام حتى اضاليا • وبلغ شمال سوريا عبر قبرص ، حيث كاد يهلك جوعا ، ثم توجه الى حمص • وفى هذه المدينة القى القبض عليه واودع السجن ، ثم اطلق سراحه وزود بجواز يخوله زيارة جميع الاماكن المسموح بزيارتها للمسيحيين •

ومن المعروف ان بطريق القدس بعث برسائله الى الملك الفرد ، اسوة بما بعثه منها الى ملك الفرنك • شارحا فى تلك الرسائل عوز الكنيسة فى فلسطين وفقرها • فقد كانت الكنيسة فى حاجة ملحة الى المال للابقاء على المعابد المسيحية من الانهدام ، ولفدية المسيحيين من الاسر وتخليص ممتلكات البطريق من راهنيها • ومقابل المساعدات التى قدمتها انكلترة ، استلمت من البطريق مجموعة من الوصفات الطبية كانت اكثر بساطة بتركيبها ، مما كان يستعمله الانكلو سكسون يوم ذاك من وصفات فى معالجة مرضاهم • وقد ظلت تلك الوصفات عماد الكتب الطبية الانكليزية لسنوات ليست بقليلة العدد • ويفسر المؤرخون قصة الهدايا التى بعث بها الملك الفرد الى القديس توماس فى الهند بانها قدمت الى ضريح القديس توماس فى اديسا (اورفا)

وليس الى الهند .

ولم تكن التقوى وحدها هى التى دفعت بالناس الى الشرق الاوسط ، بل ان الاستطلاع الفكرى هو الذى دفع اثيلارد[1] الى ارتياد مصر وفلسطين وبلاد العرب . « وكان ارثيلارد هذا ذا نكتة بارعة ورغبة ملحة للاطلاع ولمعرفة ما كان يتداوله الناس عن تلك الاصقاع » . وثمة بعثة مؤلفة من ثلاثة اشخاص أوفدها ادورد العراف ، قصدت اسقف افيسس للتثبت من صحة ما رأه الملك فى نومه . فمما تراءا للملك فى نومه ان « السبعة النيام » ، المضطجعين على جانبهم الأيمن استداروا فاضطجعوا على جانبهم الايسر . فكان هذا نذيرا لكارثة ستحل فى البلاد ، وستدوم اربعة وسبعين عاما . ومما يروى ان البعثة لاقت ترحيبا حارا وانها شاهدت « النائمين » وتثبتت من صحة رؤيا الملك . و « ان وقوع الكوارث التى تنبأ بها الملك لم يتأخر ميقاته » .

ان صلات الشرق الاوسط ببريطانيا ، كما تنم عنها المكتشفات الاثرية ، أو كما هى ممثلة فى تأثير الفن الشرقى والبيزنطى بالفن الانكليزى ، أو ممثلة فى المنافع التى جنتها انكلترة وغيرها من اقطار اوربا خلال القرون الوسطى ، نتيجة انتقال العلوم اليونانية اليها عن طريق العرب ، خارجة عن نطاق هذا الكتاب . وان كان من المفيد ان نشير هنا الى ان بعض مسكوكات بغداد التى ضربت فى عهد خلفاء عباسيين مختلفين اكتشفت فى اوركنيس، وربما جاء بها بعض قرصان جنوب اوربا . كما ان المسكوكات السكسونية التى اكتشفت فى الشرق الاوسط هى ولا ريب من أثر الصليبيين . على اننا لا ندرى ما هى البواعث التى دعت « أوفا » حاكم مرشيا فى القرن

---

(١) Athellard.

الثامن ، الى اتخاذ دينار بغداد الذهبى عملة للتداول فى مدينته • وربما كانت الدوافع التى دعت الى استعمال « البزنت » واسطة للتعامل خلال السنوات المتأخرة هى الدوافع ذاتها التى بررت استعمال الدينار فى مرشيا • ومهما كانت المبررات ، ففى الامكان مشاهدة نموذج فريد من تلك المسكوكات فى متحف ادنبرة • ومع قدم تلك المسكوكات ، ومع ان وسطها ختم بختم « أوفا » ، فان الحروف العربية لا زالت ظاهرة عليها • ولو قدر لسكان مرشيا يومئذ قراءة تلك الحروف لاعتبروا استعمالها كفرا وهرطقة • فانهم وان كانوا يوافقون على « الله اكبر » فسيعتبرون « لا شريك له » الحادا وكفرا •

- ٢ -

ومع كثرة ما نشاهد فى الكنائس الانكليزية من تماثيل فرسان على الاضرحة ، فان الحركة الصليبية لم تلق التشجيع الكافى فى انكلترة • وربما عزى ذلك الى بعد الخطر الاسلامى عنها ، أو لوجود متسع كاف للجيش النورمانى فى انكلترة المحتلة حديثا • ومهما كان الامر فان المساهمة الانكليزية فى الحروب الصليبية كانت قليلة بالنسبة الى المساهمة الفرنسية • والحقيقة ان فرقة انكليزية ساهمت فى الاستيلاء على احدى المدن التى كانت بايدى العرب ؛ ولكن هذه المدينة لم تكن من الاراضى المقدسة ، وانما كانت فى بلاد البرتغال حيث وصلت بعض الجيوش الانكليزية الصليبية فى طريقها للالتحاق بالملك الفرنسى لاراضى الشرق • فساعدت تلك الجيوش ملك البرتغال لاسترداد لشبونة من أيدى الكفرة ! ويقدر عدد الذين اشتركوا من الانكليز فى الحملة الصليبية الاولى باربعة أو خمسة الاف محارب •

وقد رافقتهم شخصيات معروفة بينها زوجة بولدوين التى توج زوجها أول ملك مسيحى للقدس • وكانت فى صحبة زوجها اثناء سفره فى الحملة فعاجلها الاجل قبل بلوغ الارض المقدسة •

ولقد طغت الاساطير الغرامية التى حيكت حول ريشارد الاول واللورد ادورد ـ ادورد الاول بعد ذلك ـ على ما قاما به من اعمال • ففى طريقه الى فلسطين استطاع ريشارد من الاستيلاء على قبرص ، وطرد حاكمها البيزنطى ، احد حلفاء المسلمين ، ولكنه باعها بعد ذلك الى تمبلرز[1] • فسلمها هذا بدوره الى غى دولوسينيان[2] ، فقطع بعمله هذا صلة الانكليز بتلك الجزيرة • ولم تتجدد تلك الصلة الا بعد سبعمائة عام • ولا ريب ان البراعة العسكرية التى كان يتحلى بها ريشارد ، ساعدت فى انتصار الصليبيين فى عكا وارصوف • ومع ما اصاب الجيوش المسيحية من تفكك ومن امراض فان شجاعة ريشارد هى التى دعت الى توقف الفتح الاسلامى لبعض اقطار اوربا الشرقية مدة طويلة والى صد الهجمات الاسلامية على القدس • كذلك ان الشجاعة الفائقة التى كان يبديها هذا الملك اثارت الحماس فى نفوس زملائه الذين تخلفوا عن الحملة ، كما اثارت اعجاب اعدائه • ومما جاء فى « اخبار جوينفيل »[1] ان الملك ريشارد قام باعمال جبارة اثارت الرعب فى قلوب المسلمين • ويقول هذا المؤرخ فى كتاب « الارض المقدسة » اذا ما بكى اطفال المسلمين فان امهاتهم يرعبنهم بذكر اسم الملك ريشارد • واذا ما انحرفت خيول المسلمين نحو شجرة أو اجمة ، فان فرسانها يصرخون بها « ويحكم اتحسبون الملك ريشارد فى أثركم » •

وجاء دور الملك أدورد متأخرا ، لانه بلغ الارض المقدسة بعد ان

---

(١) Joinville's Chronicles. (٢) Templers. (٣) Guy Delusignan.

انتهت الحملة التى اراد الانخراط بها ؛ ولذا فقد اقتصرت حركاته على غزو مراكز ثانوية لا أهمية حربية لها • على انه اظهر كفء فى خططه الدفاعية عندما فاوض ابن خان المغول فى ايران للقيام بحملة مشتركة على عدوهم مسلمى سوريا • وفشل هذا المشروع ولم يكن له يد فى فشله • وتاريخ الحروب الصليبية لم يعرفه باعماله هذه ، وانما اشتهر بعد ان حاول اغتياله احد الحشاشين فجرحه بخنجر مسموم ؛ تلك الفئة التى كان يبعث بها شيخ الجبل (لبنان) لاغتيال القادة المسيحيين •

ومع ان الدور الذى لعبه الانكليز فى الحروب الصليبية كان ثانويا ، فانه كان كبير الاثر فى تطور انكلترة اجتماعيا • فان جمع مقادير كبيرة من المال تفى بكلفة المعارك ، ولفدية الملك ريشارد الاول ، عجل فى نقل السلطة من ايدى الاقطاعيين الى طبقة التجار • وقد دعى ذلك الى الاستعانة برجال المال للاقتراض منهم ، فكان من نتائج ذلك ان احتل رجال المال المكانة التى كان يحتلها رجال الاقطاع • كما ساعد البعض من سكان المدن فى شرائهم جزءا من حرياتهم ، وتخلصهم من العبودية التى كان يفرضها عليهم الملوك • كذلك كان من أثر الحروب الصليبية ان وضع نظام معين للضرائب • فمثلا ان « عشر صلاح الدين »[1] • كان أولى الضرائب التى فرضت على الاموال المنقولة فى انكلترة • واكثر من ذلك ان الحروب الصليبية اذكت فى نفوس الانكليز ، وفى نفوس ابناء الاقطار الاوربية الاخرى الشعور القومى • وهذا ما يؤيد الرأى القائل بان قيام الشعوب باعمال مشتركة لما يقلل من التوادد بينها ، أو من احترامهم المتبادل •

وعندما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن غرضها الرئيسى ،

---

(١) Saladine Tithe.

وهاجمت الجمهورية البيزنطية ، لاسباب يطول بحثها ؛ وضعفت استحكامات الصليبيين بوجه المسلمين ، لم يشترك الانكليز فى تلك الحملة ، وانما انظموا الى البيزنطيين • وبحسب ما ورد فى وصف فيلاهاردوين[٢] عن حصار القسطنطينية « ان الفرنك اسندوا سلمين على جدران حصن بالقرب من البحر واعتلوها ؛ ودافع الانكليز والدنماركيون وغيرهم ممن كانوا فى الحصن دفاعا مستميتا ، وصدوهم صدا شنيعا ، بعد ان أسروا عشرين محاربا منهم » • وحيثما صمد الانكليز والدنماركيون عجز المهاجمون عن اجتياز الحصن ، غير ان ثغرات حدثت فى مواقع اخرى أدت الى استسلام المدينة • وعندما ادخل وفد الفرنك القصر الامبراطورى لاجل المفاوضة كان الانكليز والدنماركيون حرس الشرف • وكان اولئك النفر من الحرس أهم أركان الحرس الامبراطورى ، الذى يؤلف الاسكندناويون[١] أكثريته • وقد زادت نسبة الانكليز فيه بعد الغزو النورمانى ، عندما كثرت هجرة الانكليز والدنماركيين من البلاد • ومما أورده هاكلويت[٢] بصدد الحرس الامبراطورى ، انه عندما كان يذهب الامبراطور الى مصلاه ويعود منه يتعالى صليل الرماح المشتبكة ، ويدعو الحرس الاسكندناوى بلسان انكليزى ، للامبراطور بطول العمر • ولا ريب ان كلا من الفرق الاخرى من الحرس يهتف بلسانه • ومع هذا فان كثرة الانكليز فى الحرس اكسبت القصة التى أوردها هاكلويت لونا خاصا •

ولم يشتهر الانكليز بكونهم حرس للشرف فقط ، بل عرفوا بمعاركهم فى الدفاع عن القسطنطينية ، وبالدور الذى قاموا به فى معارك اخرى ، عندما كاد الجيش التركى السلجوقى ان يبيد الجيش البيزنطى عن بكرة

---

(١) Villahardouin. (٢) Varangian. (٢) Hakluyt.

ابيه ، فى موقعة بالقرب من قونيا • وكتب الامبراطور رسالة الى هنرى الثانى ملك الانكليز ، يقول فيها « وكان معنا رجالكم العظام » • وليس لدينا ما يشير الى مصير الحرس بعد الغزو اللاتينى للقسطنطينية • ولكن الشواهد الحجرية للرموس ، التى ظلت بقاياها فى القسطنطينية حتى عام ١٨٦٥ ، كانت تحمل اسماء الاسكندناويين من أفراد الحرس • وقد رغب السفير الانكليزى يومذاك ، بنقلها الى المقبرة الانكليزية ، الا ان السلطات رفضت طلبه • واستعمل الناس تلك الاحجار فى البناء ؛ كما احترقت النماذج التى عملت على هيئة تلك الشواهد فى حريق شب فى المحل الذى جمعت به •